والدعة والقوة ، فالشاعر لايجد فى هذا ألما عنيفا ، وإنما يألم ألما يسيرا خفيفا تنافسه هذه البهجة بمولد المطر ونموه ، ومولد الوحش ونموه ، وظهور هذا النشاط الحر الذى يشغل الشاعر عما كان من عاطفته الخاصة . ولايستطيع القارىء أن ينسى بأية حال كيف استطاع تصوير طه للدار والمطر والرعد والنبات والوحش والحيوان والأطفال ، كيف استطاع هذا كله أن يمحو غير قليل من هذه العاطفة الخاصة التى لاتملك الشاعر طويلا ، وإنما يحاول أن يتحرر من جانب غير قليل من أحزانه وضروراته وعلاقاته لكى يفهم عن الدار وحياتها الجديدة فهما أفضل .

والحقيقة أن لغة طه حسين وإشاراته الموجزة كانت حريصة على إيجاد هذا النوع من التوازن الرائع بين آثار العلاقة الإنسانية وآثار الوجود أو الحياة التى هى أكبر من تلك العلاقات . وعلى هذا النحو يصور لنا طه حسين مطولة لبيد وقد أخذت فى طريقين اثنين يلتقيان ويمتزجان ، أحدهما يبدو طريقا قصيرا غامضا ، هو طريق الحزن والذاكرة الشخصية ، ولكن الطريق الثانى هو طريق البهجة والوجود الذى يحيط بهذا كله إحاطة تجعله أكبر مما يصيب شخصا من الأشخاص فى ظرف من الظروف . يقول طه : وهو يرى النساء وقد دخلت الهوادج كأنهن الظباء يأوين الى الكنس التى يتخذنها من أغصان الشجر ، وهو يرى هذه الهوادج ويتبينها ، ويصورها كأنه يمسها بيده ، وهو يذكر لنا مانشر عليها من الثياب ، وهو يذكر لنا أستارها الرقيقة ، ثم هو يرى الإبل وقد نهضت ، ثم دفعت أمامها فى الطريق ، وهو يتبع هذه الإبل ببصره وهى تنأى عنه شيئا فشيئا ، وتغيب عن عينه قليلا قليلا . والضحى يرتفع ، والسراب ينتشر ، وصورة هذه الإبل وهى تخرج من سراب لتدخل فى سراب ماتزال تتمثل لعينيه ، ثم تغيب الإبل حتى تنقطع أو تكاد تنقطع الأسباب بينه وبينها . ومازال الضحى يرتفع ، ومازال الآل ينتشر ، وإذا الشاعر ينظر فلا يكاد يرى إلا تلالا صغيرة ضئيلة قد اتخذت من هذا السراب أردية .

فى هذه العبارات يشير طه الى أن الطبيعة ليست مرآة نفس الحزين ، أو يشير الى أن الطبيعة من الممكن أن يراها الانسان أجل من عاطفته الضيقة ، ومن الممكن أن يرى فى الضحى والسراب غذاء يصلح من نفسه ، أو يجعل نفسه حاشية ضئيلة على لوحات كبرى لايمكن أن تكون خادما لعاطفة شخصية مهما دقت أو جلت . وهذه هى البهجة بالحياة التى جعلتنا نقول إنها تذكر بالنزعة الإنسانية التى ترى فيما حولها من الضحى والسراب آيات حياة عالية ، أو مرآة نفس قوية سمحة عالية وديعة . وهذه هى